الكتاب الأول

قص ولصق

مجدى عبد الهادى

قصص

المجلس الأعلى للثقافة



الكتاب الأول ٥٨
قص ولصق
مجدى عبد الهادى

قص ولصق

مجدى عبد الهادى

التصميم الأساسى للغلاف محيى الدين اللباد + أحمد اللباد

لوحة الغلاف : هشام نوار .

الكتاب الأول
- ٥٨ -

قص ولصق

قصص

مجدى عبد الهادى



٢٠٠٣

أين أعلق تذكاراتى
والحائط منهار ؟

صلاح عبد الصبور

الحياة تحاكي الميلودراما

« يوجين أونيل »

جلس أمام مكتبه بعدما أعد كوبًا من الشاى ، وهو ما استدعى ذهابه إلى المطبخ – حسب ما يتذكر الآن – أربع مرات على الأقل . تأفف كثيرًا – كعادته – لما يستغرقه صنع الشاى من وقت ، لاعنا ذاكرته التى بدت عليها فى السنوات الأخيره سمات الشيخوخة وهو لا يزال فى عز الشباب لم يغب عن ذهنه بالطبع – فى هذه اللحظة بالغة الأهمية ووقع نبضه ودقات قلبه يكاد يصم أذنيه – إن صنع الشاى لم يكن سوى المحاولة الأخيرة من سلسلة الإجراءات والمراوغات التى تمخض عنها فى النهاية ما لم يكن فى حسبانه . بدأت كلها بسؤال طبيعى جدًا ولم يأته قط كمفاجأة : من أين تأتى الأتربة ؟

وضع رأسه بين كفيه مرتكنًا بمرفقيه على سطح المكتب ، وجال بنظره فى غرفته الغارقة فى بحر من الكتب والمجلات والجرائد والأوراق المتناثرة .. أين راحت تلك الوعود التى قطعها على نفسه ؟ حتى طاولة الزهور النحيفة فى الركن المجاور للشرفة لم تنج من زحف الأوراق والقصاصات . وأية زهور تلك ؟ ذبلت نبتة الصبار اليتيمة وتحولت إلى حراشف داكنة ملتوية ومنقبضة كهيكل عظمى لطفل مشوه البنية . ولم يعد يظهر من الكليم الأسيوطى الكالح سوى ممر ضيق للسير يبدأ عند الباب ثم يتفرع إلى ممرين ، أحدهما يؤدى إلى كرسى المكتب ، وآخر الى الشرفة .

حط التراب واستقر فى كل ركن وفوق كل سطح ، فاكتسى الأثاث بطبقة من الغبار طالت أيضا الصور المعلقة على الجدران وكادت تطمس معالمها ، وتحولت الأتربة الى كرات رمادية هشة تتدحرج تحت الموائد

والكراسى كلما تقاذفتها نسمات الصيف النادرة . لم يعد يستطيع ملامسة أى سطح دون أن تسرى فى بدنه قشعريرة التضرس . وتحول ضوء المصباح الوحيد المتدلى من السقف الى بصيص واهن لا يمكن القراءة ولا الرؤية فيه .

البقعة الوحيدة التى نجت من سطوة الغبار هى دائرة ضيقة على مكتبه ، بدت كواحة صغيرة يقضى عندها ردحًا كبيرًا من وقته : القراءة والكتابة والأكل والتحديق فى الفضاء والفوضى المعاصرة . فإلى متى سيبقى ساكنًا ؟ جال بخاطره مرة أخرى ذلك السؤال الأبدى : ما العمل ؟

كم من مرة ارجأ حرب التحرير هذه، وكم من حجة ساقتها نفسه : ضيق الوقت ، تفاهة المشروع بالقياس إلى همومه العظام ، وعدم جدوى المشروع من الأصل (تلك هى أم الذرائع) ، فسرعان ما ستتراكم الأترية مرة أخرى ، إنه اليقين الوحيد فى هذه المدينة ، أو ليس من الأفضل التعود عليها ، الائتناس بها ، مضاجعة عدوك حسب فيلم أمريكى شهير ، وما جدوى المقاومة ! أو لم نخلق من تراب ؟

تلاطمت الحجج والتبريرات بداخله وهو يتطلع الى نفسه فى مرآة الحمام موبخًا إياها .

زم شفتيه وهو يكز على أسنانه ثم أمعن النظر فى وجهه الذى ارتسمت على ملامحه علامات الضجر والاستياء من الوجود برمته . سبه ووبخه موجهًا له اتهامات الخيانة والتقاعس والخذلان ، ثم أطفأ النور قبل أن يغادر الحمام ، ويقى أمام المرآة برهة فى الظلام .

غادر الحمام وقد انتابه فجأة شعور بالثقة العمياء ، جعله يتذكر قواتنا المسلحة فى عروضها العسكرية قبل النكسة . باغته هاجس أن

التراب والفوضى شقيقان متلازمان ، ولا يمكن القضاء على واحد دون الآخر ، المعضلة تكمن فى أن التراب وجود مادى يقضى عليه بالتخلص منه بجهد عضلى بحت ، كالقتل مثلاً . أما الفوضى فلا يقضى عليها بالعنف الذى هو أحد تجلياتها . الفوضى تحتاج إلى الدرس لاكتساب سر افتقادها للنظام ، واستخلاص مبادئ ذلك النظام من عدمه ، فبأيهما يبدأ التراب أم الفوضى ؟ وتتالت الأسئلة كالفيضان وخياله يركض وفى أثره سنابك التطير تصرخ وتتصايح .

تهاوى على المقعد وقد أصابه دوار خفيف .

متى بدأ الهوس بالكلمات وفى أى ركن غائر من نفسه يكمن سر الافتتان بها ؟ ماذا لو استبدل قناع الشك باليقين – على سبيل التجريب مثلاً! يثب عاليًا إلى قمم الأصنام الشاهقة التى تزعق كل يوم فى فضاء المدينة ليتلثم بزعيقها ، يتماهى فى صراخها ، أو يتقمصه للتسلية والترويح ؟ قد لا يتعرف على نفسه حينئذ عندما ينخرط فى الزحام ، وأيهما أفضل : أن تتوه وحدك أو ضمن حشد جافل ؟ علـه يبصر من فوق القمم ما لا يمكن رؤيته من سجنه الضيق الخفيض . هل من بداية أصيلة لم يطرقها أحد ؟ هل سيكتفى هذه المرة أيضًا بالوعود التى تذوب بصعود شمس النهار الحارقة ؟ وكيف يُخمد حريق الأسئلة ؟

أتاه صوت مذياع الجيران عبر الجدار يحمل صوت الشيخ الحصرى يرتل بموضوعية تبعث على الاكتئاب : « وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون » دندن مقطعا لشادية « على فين رايحين » .

* * *

اتقد حماسه وهو يتأمل ثمار انتصاره الأول ، وبالطبع جالت بخاطره عبارات " إنجازات الخطة الخمسية الأولى ". تطلع إلى صفوف الكتب التى عادت أخيرًا فوق رفوفها مرتبة أبجديًا حسب اسم المؤلف ، بعد ما نحى عن ذهنه بحزم لم يعهده كل الوساوس المنهجية والابستيمولوچية . واستقر نظره فى النهاية على دوسيهات القصاصات التى نظمها فوق الرفوف السفلى ، مرجئًا مشكلة التصنيف الدقيق إلى وقت لاحق . ابتسم وتنهد ثم سار صوب المطبخ وعاد يحمل المكنسة والجاروف وخرقة قديمة .

لم يعبأ بما قد يقوله الجيران عن جارهم المجنون عندما حمل الكليم إلى الشرفة ونفض عنه الأتربة فى هذه الساعة من الليل بدلاً من الجلوس أمام التليفزيون للاستمتاع بالمسلسل . ثم راح يمسح أرض الغرفة والأثاث بالخرقة المبللة بالماء ، ليقضى بذلك على كل أثر من بقايا العهد البائد . تذكر عبارة « إزالة آثار العدوان » فابتسم بسخرية وحزن من يفتقد عدوا قديما .

شعر بارتياح وهدوء نادرين عندما سحب نفسًا عميقًا وذاق طعم الهواء النقى لأول مرة منذ ... منذ متى ؟ لم يعد يتذكر. انبسطت أساريره وهو يتطلع حوله ليرى كيف عاد للأثاث لونه الطبيعى وزهوه القديم ، وبزغت ملامح صور الأهل والأصدقاء من جديد بابتساماتهم الفوتوغرافية وتحديقهم القديم فى عدسة المصور كمن أوشك على المرور إلى عالم سرمدى لا موت ولا جحيم ولا فردوس فيه ، عالم تأطره براويز مفضضة وذهبية استردت لتوها لمعتها الأصيلة ورونقها الرخيص .

كيف كان يعيش وسط تلك الأطلال طوال هذه السنين ! فكر وهو يتحسس جبهته المبللة بعرق امتزج بعفرة التنظيف والترتيب. أطال النظر

إلى الغرفة وإحساس بالسعادة النادر يستحوذ عليه كل وجدانه حتى شعر برغبة عارمة فى الرقص . لا ينقصه الآن سوى الجماهير الغفيرة تصفق تصفيقًا حادًا وهم يهتفون بحياته وبنضاله العادل ضد قوى البغى والعدوان فى مظاهرة عارمة مطالبين بإقامة تمثال له فى ميدان عام وهو يخطب فيهم: أيها الاخوة المواطنون اليوم بعد سنين طوال ونحن نرزح تحت وطأة العملاء وبعد أن أممنا القناة وخرج المستعمر من ديارنا حاملاً عصاه يجر أذيال الخيبة أيها الاخوة ... تصفيق حاد وهتافات .. هـ نحارب .. هـ نحارب .

* * *

لولا انهماك الجيران فى مشاهدة التليفزيون لهرعوا إلى السلم عندما تناهت إليهم الصرخات المدوية التى كادت جدران العمارة تهتز من شدتها ، وفى الأغلب أنهم اعتقدوا أن الصريخ مصدره مسلسل آخر أو فيلم فيديو يشاهده جارهم غريب الأطوار ، فمكثوا فى مقاعدهم مسمرين كعادتهم غير عابئين بأى طارئ خارج الإطار الساحرى .

- إيه القرف ده . ربنا أكيد مستقصدنى !

ردد بصوت عال وجسده كله ينتفض غضبا وهو يتضور حسرة على الحلم المهدور .

كاد حنقه وفورانه يدفعه الى الانقضاض عليهم جميعًا فى هجمة واحده شرسة بكل ما تيسر له من قباقيب وفرش بلاط وأحذية وشباشب ، لكنه كبح جماح نفسه متريثًا هذه المرة . أو لم يكن هذا هو بالتحديد ما فعل فى الماضى ، ولقد أثبتت التجربة الآن عدم جدوى الانفعالات

الحمقاء وعبث تلك الحلول المتسرعة التى تفتقد إلى تفكير منهجى مدروس . لابد من خطة محكمة هذه المرة لمواجهة عدو شرس تحركه غرائز بدائية عمياء ويختلف كمًا وكيفًا عن الفوضى والأترية . لابد من إزالة أسباب وجودهم من الأصل .

أحضر ورقة وقلم وراح لأول مرة يرسم بدقة خطة محكمة ومراحل تنفيذها وكيفية اتمامها دون ارتجال أو «كلفته» . قرر البدء بتسديد ضربة لهم فى العمق : مقر قيادتهم الذى يوجهون منه هجماتهم ويدفعون بقوات الانتشار السريع - التى ما أن يحمل الظلام حتى تقجم كل المتاريس لتعوث فساداً فى الأمكنة. ويعد ضرب غرفة العمليات المركزية يقوم بتحويط مراكز التعبئة والاستطلاع المنتشرة فى الحمام وفى كل مكان ترتع فيه الرطوبة والمياه الراكدة والأطعمة وبقاياها لإبادتهم عن بكرة أبيهم . لابد من العمل فورا وفق منهج الحرب المفاجأة Blitzkrig ، دون إنذارات أو تهديد ووعيد ودعوة لانعقاد مجلس الأمن ومطالبة المجتمع الدولى باتخاذ أى موقف ، إنها السبيل الوحيد للقضاء على عدوك و إراحة بالك منه للأبد ما إن تيقنت من أنه يناصبك العداء ، لا تناقشه لا تحذره ولا تشعره بعداوتك ، فالحياة أثمن من إضاعتها فى هراء مثل ذلك .

وضع قائمة مستفيضة بكل الثقوب والشقوق ثم راح يسكب كميات كبيرة من المبيدات الفتاكة (لن يذكر اسمها كى لا يشك أحد فى أنه مروج أو عميل لشركة متعددة الجنسيات ويتهمه النقاد بأنه يتاجر بالأدب والكلمة من أجل تحقيق مكاسب مادية حقيرة وبالعمالة ، وهى تهمة يلوحون بها فى وجه من يعمل ومن لا يعمل على أية حال) . صب المبيد الفتاك فى الثقوب وأتبعه مباشرة بكتلة كبيرة من الجبس لسد أى منفذ للفرار. وبذلك يكون قد أحرز نصرين فى عملية واحدة : ضرب القيادة

وعزل الخطوط الأمامية وقطع طرق التراجع أو الانسحاب أمام فرق الاستطلاع فى آن واحد .

انتشى وهو يراقبهم يفرون مذعورين أمام ضرباته ، يهرعون إلى مخابئهم فى الشقوق فلا يجدون مداخلها ، ويرتدوا راكضين بحثا عن مدخل آخر فلا يعثرون على ملاذ من ضرباته الفتاكة. وكلما تفشت الفوضى بين صفوفهم وزاد الهلع وسطهم ارتفع صوته مقهقها بضحكات هستيرية. لم يشعر بالتقزز الذى كان يسرى فى جسده عادة عندما كان يدعسهم بحذائه ، بل شعر بلذة غريبة وهو يقف منتصرًا فوق أجسادهم النحيلة ينصت إلى صوت تفتت ظهورهم الهشة وهو يفعص بإمعان وتركيز أحشاءهم البضة اللزجة .

*   *   *

لم يلبث أن جلس أمام مكتبه حتى أتاه صوت التليفزيون زاعقًا عبر الجدرانِ ككل مساء – وصباح – من شقة جاره – وصاحب البيت فى آن واحد : سيادة اللواء المتقاعد ذو السمع الثقيل وزوجته التى تهب الحزن الشديد والبكاء المتواصل لسنين يفطرها بعدما انتحرت ابنتها الوحيدة عندما أصر أبوها على أن تتزوج ضابطًا فى الجيش بدلاً من زميل لها فى الجامعة أحبته .

« تبًا لك يا كارولين ، أرجوك صدقنى ، لكم حاولت اقناعه لكنه قوى الشكيمة ، أنت وغد رعديد ولا يمكن الثقة بك ، كف عن ذلك بحق الشيطان ... » كان صوت الممثلين يأتيه عبر الجدار مخلوطًا بصوت جاره ، وهو يقرأ الترجمة بنبرة معيزية لجوج - إحدى مؤهلاته الميرى الكثيرة التى أبى التخلى عنها .

أخذ هدوؤه الداخلى ينحسر تدريجيًا ، وأسرعت دقات نبضه وقلبه ، وشعر بسخونة تنتشر فى جسده لتحل محل ذلك الإحساس الرطب الجميل الذى كان قد خرج به من الحمام بعد الدوش . وضع رأسه بين كفيه وارتكز على الطاولة بكوعيه كمَن يتوجس اقتراب العاصفة ، ووجد نفسه يردد مرة أخرى ما العمل ؟

ما نفعه صبره ليلة أو مساء أو صباحًا كاملاً فى الماضى ، فالبث لا ينقطع من « صباحة ربنا » ، وما أجدى الحوار العقلانى فى الماضى مع هذا العسكرى الذى تدين وبزغت فى جبينه زبيبة التقوى والصلاح مع ترهله وتقدمه فى السن . لم ينس بعد آخر مرة أبدى فيها اعتراضًا على ارتفاع الصوت ، وأى حق لكافر مثله أن يعترض على آيات الذكر الحكيم، والحديث والسنة هما أيضًا من الشرع ، وتبًا لك ولكل من سولت له أفكاره أن ... وأن ... ، وأهدرت كل المحاولات المنطقية لشرح الفرق بين الدين والإيمان العميق والمصحف "الصوتمرئى" الذى يبثه التليفزيون بترسانته الجبارة من الوعاظ والمقرئين ليفرضه هو على كل جيرانه سواء كانوا نائمين أو يأكلون أو يقضون حاجتهم فى المرحاض أم يضاجعون نساءهم أم يروحون عن أنفسهم كما يترائى لهم وقتما يشاؤون .

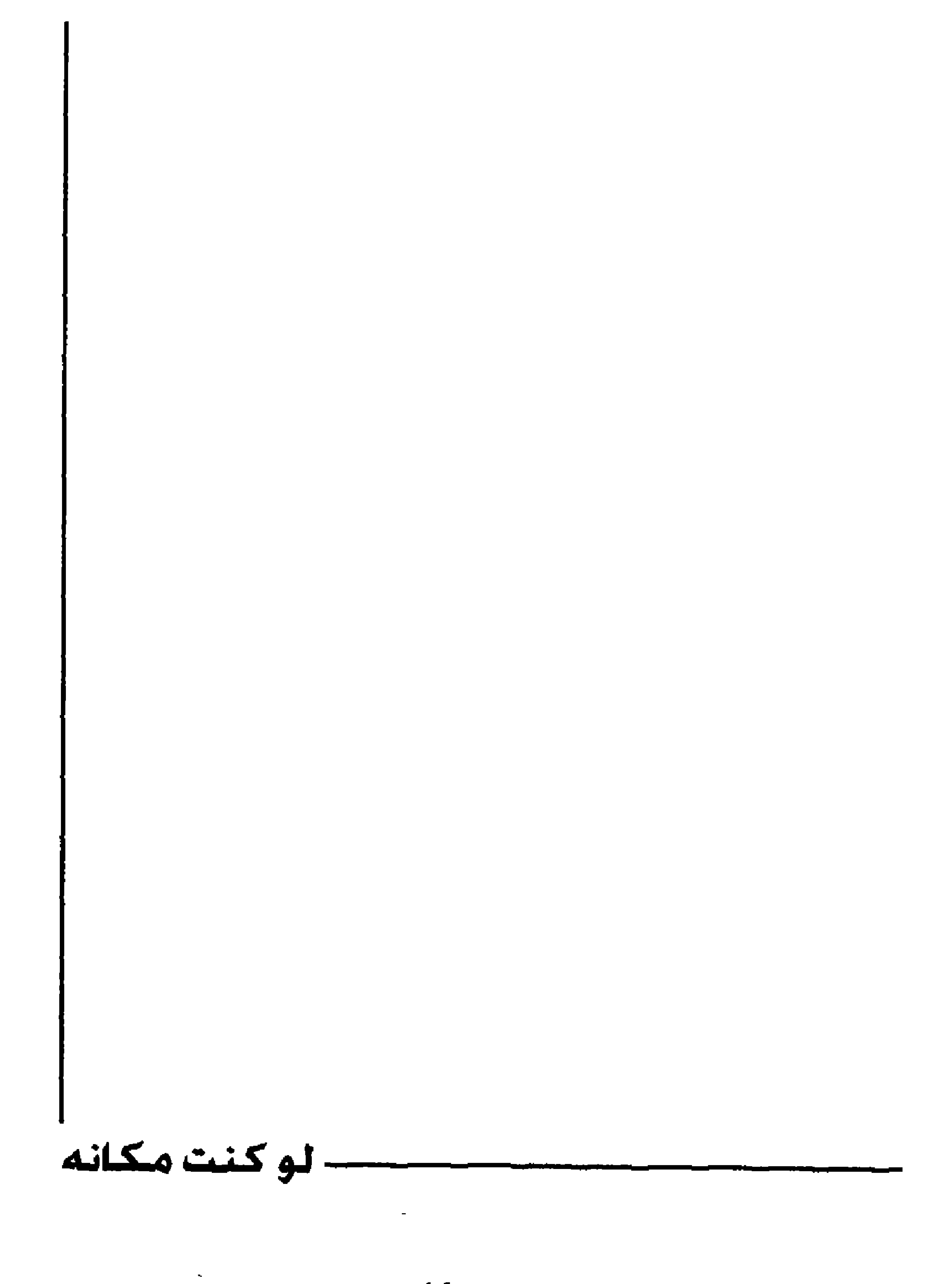
مازالت ذاكرته تختزن رائحة الرذاذ المتعفن المتطاير من فم سيادة اللواء وهو يقترب منه كلما تراجع ليتفادى «الرشاشات» فى تصادماتهما الكثيرة، فى معركة مضخة المياه وخناقة تصليح السلم وحرب جمع القمامة وواقعة إضاءة المدخل،وعندما حاول لأن يشرح له أن ثمة فرق بين احترام الصغير للكبير واحترام الجميع للقوانين ،«وهى القوانين يعنى

إن الشباب يتطاولوا ع الكبار » ، قالها لاصقًا فمه فى وجه مطلقًا دفعة قوية من الرذاذ كمن تعمد البصق عليه .

لقد بدأ مسيرة الحلول الجذرية هذا المساء ولا فكاك من المضى فى نفس الطريق ، المسكنات والحلول الجزئية تعنى التقاعس والعجز والخوف ، قص سلك الهوائى الذى يمر بمحاذاة نافذته هو حل جريه فى الماضى . لقد حان وقت أن يقطع عرقًا كما يقول المثل الشعبى البليغ ـ لكن كيف؟ هل يفجر مبنى التليفزيون ؟

* * *

يعود إلى شقته ويسرع إلى الحمام ليغسل يديه المخضبتين. يغير ملابسه. يتجه إلى مكتبه وجسده كله يرتجف . لحظة نادرة من الهدوء الكامل . لن تدوم طويلاً . عليه أن يسرع الآن قبل أن يأتوا فهو لم يأبه بإخفاء أى أثر. سيأتون أكيدًا فى الصباح . لابد من الانتهاء الليلة . يصنع كوبًا من الشاى ويشرع فى الكتابة .



أين المفر ؟ فكر وهو يسير فى الطريق المؤدية الى المطار للاستمتاع برؤية الطائرات وهى تحلق مبتعدة إلى أماكن أكثر رحابة وأقل تكدسًا بالبشر، ألطف طقسًا وأكثر حضارة وأمنًا ، نعم ، الأمن هو هاجسه الأهم الآن . لكم تبدو قصيرة كل تلك المسافات كلما تطلع الى الطائرة تقلع فيتخيل هواءها المكيف الرطب وهو يتصبب عرقًا تحت قيظ الظهيرة ، ونار الأسفلت الحارق تنفذ عبر نعل حذائه الرقيق .

لكن كيف يهرب وثمة مؤامرة محكمة دُبرت لإيقاعه فى فخ لا يعرف تفاصيله ولا يمكن أن يتخيل مؤداه ؟ التأشيرة ـ همه الأول والأخير ـ أمرها يهون الآن لما بدأ يلحظه فى الأونة الأخيرة من محاولات تضييق الخناق على حركته وتنقلاته ، بل أحيانا على تفكيره ذاته ، فمن ذا الذى يريد الإجهاز عليه ولمصلحة من ؟

يراقب ظله وهو ينكمش متواريًا بين ساقيه ، فيتذكر كلبًا يفر فى هلع وأحجار مطارديه العابثين تدوى من حوله . يشمئز من الصورة وتسرى فى بدنه رعشة خوف ، ثم يمضى يفكر فيمن يكون منقذه. لا أحد. لا أحد سيصدقه ـ ناهيك عن فهمه أصلاً ـ لو باح بما يدور فى خلده أو أفصح عما يعرف من أسرار ، هو يملك حقائق لا يملكها سواه ، ألهذا يريدون تصفيتة وما هى القوى التى تحركهم كعرائس الاطفال ؟

يتريث برهة عند محطة الأتوبيس الخالية . من يأتى إلى هذه الصحراء ؟ الجيش بالطبع فى كل مكان فى هذه المنطقة . ما أكثر الأسلاك الشائكة فى الصحراء واليفط الحمراء الباهتة التى تحذر من الاقتراب وتحظر التصوير . تصوير ماذا ؟ ثمة سر غامض مدفون فى هذه الرمال . مؤكد أن للرمال يدًا فى هذه المؤامرة فهو لم يبح لأحد بمخططه إلا هذه

الصحراء . فهل تضافرت حبات الرمال مع البشر المتاخمين لها وكلابهم لإحكام ربقة الحياة هنا حول عنقه ؟ كلهم يريدون أن يصبح محض صدى لا أكثر كالباقين ، حبة من حبات الرمال اللا متناهية ، ويفقد بذلك إرادته التي تميزه عن باقي المسيرات من حوله . لكنه سينكل بهم جمعيا ، غنم ومواش جافلة . حتما سينتقم لو نجح في الإفلات هذه المرة .

محطة الأتوبيس هي المكان الوحيد الذي لا يقف عنده الأتوبيس – إما قبلها أو بعدها ـ فما معنى ذلك ؟ ومن تطارد تلك السيارات المسرعة ! تزداد سرعتها غرابة في مدينة يتحرك فيها كل ببطء السلحفاة . من أقحم هذه السرعة على الصحراء ؟ وبمن ستنكل ؟ ليست هذه معركته على أي حال. سيدخر كل طاقته للتخطيط المحكم الذي لا ينفذ اليه نقطة ماء . كلاب كلهم كلاب .

يسير مطأطئ الرأس يركل حجرًا صغيرًا . ثم يتوقف عند جثة كلب تغطيها أسراب من الذباب وتحلق فوقها في السماء أسراب أخرى من الحدآن . ورائحة نتنة نفاذة تنبعث من الجيفة ، يدير لها ظهره ويغمغم: يوم كباقي الأيام هنا ، وإلى متى ؟

يتطلع الى ممرات الإسراع حيث راحت طائرة لشركة الخطوط الجوية الهولندية KLM تتأهب للإقلاع . يتسمر في مكانه . تسير الطائرة ببطء لثوان ثم تأخذ في الإسراع . يدقق النظر كي يرى أول خيط رفيع سيفصل بين عجلات الطائرة والأرض ، لحظة الانعتاق من الجاذبية .أطنان من الحديد والحقائب والبشر تحلق الآن حرة في الهواء ، بعيدة عن تلك الأرض الجحيم التي يكاد لهيبها يشوي قدميه . لكن كيف سينتزع نفسه من قبضتها ؟ وإلى أين يذهب وكيف ؟ أي مكان في العالم أفضل من هنا . ماذا

يفعل الآن وأين يبدأ ؟ كل المؤشرات توحى بأنهم يتحينون الفرصة الملائمة ، وقد ينقضوا عليه في أية لحظة الآن . لقد نجحوا فى تجنيد أقرب الناس اليه ، وما عاد هناك مكان يشعر فيه بالأمان هنا .

لقد أزف الوقت .

يلتقط حجرًا صغيرًا ثم يقذفه صوب الحدآن .

يتوقف أمام لوحة إعلانات كبيرة عليها صورة فتاة شقراء فى مايوه قرمزى اللون تبتسم ممدة تحت مظلة على الشاطئ وشعرها يتطاير وهى ترفع زجاجة سفن أب نحو فمها . ولم توضع أجزاء الصورة بإتقان فبدى ذراعها النحيل أسفل كتفها بقليل وانقسمت الزجاجة إلى شقين عموديين ، كما انحرف خصر الفتاة عن حوضها قليلاً ، وبالخلفية الزرقاء فروق واضحة بين نقاط التقاء الأجزاء المختلفة التى تصور البحر والسماء .

خلفه لوحة أخرى عليها صورتان ، واحده للرئيس وأخرى لضيفه العربى ، بالصورتين تصغير واضح لملامح الزعيمين : لون الشعر أسود فاحم ، والوجنتان متوردتان وبدون تجاعيد تذكر . ومن بين أعمدة النور تدلت لافتات بالعربية والإنجليزية والفرنسية . العربية تشيد بإنجازات الزعيمين من أجل تحقيق النصر والعدل والسلام والرفاهية لشعبيهما وللعالم أجمع ، أما اللافتات الأجنبية فترحب بالضيف الكبير إلى مهد الحضارة ، ولا تخلو واحدة من أخطاء هجائية واضحة . يتنقل ببصره بين الإعلانات واللافتات وهو يدخن سيجارته بشراهة وسرعة لافتة . ثم يلاحظ تكاثر الحدآن التى حطت لتنهش من الجيفة التى تركها وراءه . ينشب شجار بينها ، فتطير معظمها ولا يبقى إلا اثنتان . الأخرى تحلق فى

دوائر تتسع وتضيق ، تهبط ببطء فاردة جناحيها ، لكنها تصعد بسرعة بعيداً عند بزوغ سيارة ، ثم تهبط وتحلق مرة أخرى متحينة فرصة جديدة للانقضاض ، لا تيأس ولا تستسلم حتى تظفر بصيدها .

منذ فترة وهو يرصد بدقة شديدة كل العلامات والدلالات . بداية من أبسط الأشياء فى منزل العائلة حتى افتتاحات الجرائد اليومية وخطب الرئيس فى التليفزيون كلها تشير فى هذا الاتجاه المستحيل ، وهل يعقل أن يكون كل ذلك لا علاقة له هو به ؟ الصدفة مرة ، أو مرتان بالكثير ، أما هذا التواتر فقد رتب له بالتأكيد على مستوى عال رفيع .

دأب على جمع قصاصات الأخبار والمقالات كلما وجد دليلاً قاطعًا وبرهانًا ماديًا ، وكان يسجل ملاحظاته وحججه فى الهوامش ساخرًا من تمثيلياتهم المفتعلة ونظرياتهم السمجة الغثة التى لا تنطلى الا على مخبول لا عقل له . صنف كل قصاصاته ووضعها فى ملفات مختلفة وفق المواضيع وتبعًا لما ارتئاه هو من رموز و إشارات وألغاز ، وكذلك حسب تواريخ النشر خاصة إذا ما تزامنت مع تواريخ أحداث سياسية أو دينية هامه ، مثل الإسراء والمعراج أو المولد النبوى أو الثورة الفرنسية أو الحرب العالمية الأولى . كل هذه الملفات المبوبة تبويبًا مسهبًا دقيقًا وضعها فى أدراج مكتبه التى لا تغادر مفاتيحه جيبه مطلقًا ، وساعة النوم ـ الذى لم يعد يأتيه الا نادرًا ـ يضعها تحت وسادته . وزيادة فى الاحتياط فقد وضع الملفات بدرجات ميل وانحراف محسوبة كى يعرف ما إذا وصلت يد واحد من عملائهم إليها . وهو يشك بالفعل أنهم تمكنوا مؤخرًا من الاطلاع على بعض الملفات لما لاحظه من اختلاف فى وضع بعضها . فهل من مكان على الأرض يوفر له الأمان الذى لم يعد يشعر به حتى بين ذويه وأقرب

الناس اليه . مكان بعيد كل البعد عن تلميحاتهم ونظراتهم التى تكاد تدفعه إلى حافة الجنون ، بعيدًا عن تهديدات نشرات الأخبار وتوعدها ، وفى الإذاعات المحلية وحتى الموجهة التى يتابعها باهتمام محموم منذ سنين .

هل يعقل ذلك التبدل غير العادى والمجافى لكل منطق فى مواقف الناس وسلوكهم من حوله كيف يمكن أن تصدر عنهم مثل تلك الآراء بعد كل ما آمنوا به وعاشوا من أجله طوال هذه السنين ؟ ينطبق ذلك على أقرب الأقارب وأبعد الناس عنه ، إنها ظاهرة عامه ، عدوى تفشت بين الناس فجأة ، طاعون . والإ فما سر هذه العبارة الغريبة التى قالتها له أمه ذلك اليوم ، وارتفاع درجة الحرارة المذهل أثناء فصل الشتاء ، وتدخل والده أكثر من مرة لمنعه من السفر ، وتغير طعم مياه الشرب ولونها ، هذا إذا ما توفرت أصلاً . هو لا يستبعد أن يلجأوا إلى تسميمه . وفوق كل هذا وذاك استسلام البشر كافة فى هذا البلد واستكانتهم وقبولهم بكل ما لا يقبله إنسان عاقل يعتز بكرامته . يساقون جميعًا كالأغنام وينظرون له شذرًا كلما أبدى تذمرًا أو اعتراضًا . هو لا يحتمل المزيد . كلهم شركاء فى المؤامرة . لابد أن يهرب من حديقة الحيوانات هذه ، بل انها أسوأ من ذلك .

أوروبا أوصدت كل أبوابها فى وجهه . وأمريكا صارت مستحيلة بعد محاولته مقابلة السفير التى انتهت بقضائه ليلة فى «التخشيبة» . استراليا وكندا أغلقتا سفارتيهما بعدما كادت طوابير الراغبين فى الهجرة تحطم بوابات السفارة استجابة لاعلان فى جريدة ، هل كان إعلانًا فعلاً أم فخًا نصب له خصيصًا ؟ لابد من التصرف السريع لإيجاد مأوى ، فهو قد قرر ألا يعود إلى المنزل بعد ما افتضح ضلوعهم هذا الصباح .

والفرار إلى بلد عربى من سابع المستحيلات . هذه بلاد ستسلمه حتما إن آجلاً أو عاجلاً بعد تحسن العلاقات ، وهى عادة ما تتحسن عندما يتناسى الجميع لماذا قطعت أصلا . وشركات الطيران لا تبيع التذاكر لمن لم يحصل على تأشيرة دخول إلى أى مكان فى العالم . لن يلجأ إلى الهروب عبر الحدود البرية أو البحرية فقد تكون تلك بالتحديد هى خطتهم ، وما أسهل التخلص من جثته فى الصحراء أو فى عرض البحر « ولا من شاف ولا من درى ». السبيل الوحيد هو التحالف مع طرف قوى فى الصراع كى ينفذ من قبضتهم . هو فريسة سهلة طالما بقى وحده . أى طرف إذا ؟ الحيلة الميكيافيلية القديمة : ألد أعداء أعدائى هو حليفى الأوحد وملاذى الأخير، لحين .

بحث فى دليل التليفون عن أية هيئة أو مؤسسة من مؤسساتهم مازالت باقية فى البلاد بعد كل هذه السنين والحروب . اتصل بهم وطلب مقابلتهم ، فرحوا به . قال لهم يود الحضور بأقصى سرعة ، حياته فى خطر، قالوا له نحن فى انتظارك . تعال .

* * *

بعد ساعات قليلة سيمر الركب الجمهورى متجهًا إلى المطار ليستقل السيد الرئيس متن طائرته الخاصة قاطعًا الصحراء ولأول مرة فى تاريخ أمتنا العريقة الكبيرة وشعبنا المناضل العظيم تتجه طائرة مدنية فى ذلك الاتجاه وإلى المطار البلد التى علمته كتب التاريخ والمطالعة والتربية الوطنية والدينية والجغرافيا والعلوم و الصحة والرسم والألعاب والفلاحة والتدبير المنزلى إنها العدو الأول والأخير وأن اليوم حتمًا أكيدًا سيأتى

لاجتثاث الكيان والسرطان وأخى جاوز الظالمون أو نتركهم يغصبون مجد الأبوة والسؤدد وإلى ربى حزينة كوجه مجدلية .. وفجأة فى غمضة عين الرئيس المؤمنبطولى الحربسلامى السلامحريجى الأخلاقريوى مدخنبيباوى صديقكيسنجره يتخطى حاجز نفسه ويصفح عما مضى لأنهم جنحوا لها وها هو المؤمنورع حفيد أسلافنا العظام يجنح لهم ويصطف على الطريق المؤدى الى المطار جنود الأمن المركزى ويتعطل المرور وتتوقف الحياة لأن الرئيس يصنع التاريخ أهم من العيش والفول والكنس والمسح وترتفع رايات التأييد أمام البقالين والجزارين وتجار الأحذية والأدوات المنزلية والحدايد والبويات والكتب والخردوات والحلاقيين والأسكافيين وتاجرى الخضروات وتجار الزجاج والمكتبات وتجار الأقمشة والمنجدين وبائعى الحلوى والفطير والمقاولين والخبازين ومصلحى السيارات والنجارين والنحاسين فى القللى ومصر الجديدة والعباسية وشبرا والمغربلين وتحت الربع والحسين تشجع وتساند وتمدح وتذم وتشجب وتستنكر وتؤيد وتعاضد وتقول نعم ولا وألف نعم وألف لا وترتفع مكبرات الصوت والمآذن تصلى وتدعو وتتضرع وتحض وتنبذ وتثنى وتحبذ وتكره وترغد وتزبد لشهور طوال بعد حرب دامت ثلاثين عاما ولأول مرة فى تاريخ البشرية الرئيس العدو الصديقالأخ الأبالفلاح الأصيلالورع السيد السائد الزورجرفيق المزوّجمطلّق المصليإمام الراكعمركوع المحاور المحور القائد الشجاع والرسالات السماوية كلها تؤيد وتساند وضباط الشرطة من كل الرتب لواءات وعقداء وعمداء ونقباء ورواد ومقدمين وملازمين أوائل وملازمين ثوان وصولات وعريفون وشوايشيه ورجال الشرطة السرية متخفيين فى زى الشرطة السرية

يقطعون الطريق جيئة وإيابا ينصتون الى أجهزة اللاسلكى وسيارات الشرطة تمر مسرعة معلنة عن اقتراب الموكب بإطلاق صفارات الإنذار الحادة القاطعة يليها الدراجات النارية تسير فى بطء وأيها الأخوة المواطنون فى هذه الساعة الحاسمة من تاريخ نضال أمتنا العريقة تتوجه أنظارنا أيها الأخوة ان التاريخ والحق والحرية والمساواة والعدل والنضال والسلام أيها الأخوة لقد حانت ساعة الحسم ويا أيها الأخوة ها هى الساعة تقترب والآن .. الآن ... أمام أعيننا ... والآن ننتقل آنساتى سيداتى سادتى الى استوديوهاتنا فى القاهرة .

* * *

الاسم والعنوان والمهنة. البطاقة الشخصية والبصمات . صحيفة الأحوال الجنائية . تفتيش. لكمة فى الصدر وصفعة على الوجه: أقف عدل .

– انت عارف ان جريمتك عقابها إما المؤبد أو الإعدام . خيانة عظمى . محاولة الهروب إلى بلد مازلنا فى حالة حرب معها ، ومهما حدث ستظل العدو الأول . أضف إلى ذلك التهرب من آداء الخدمة العسكرية ، ودماء شهدائنا لم يجف بعد ، وكمان تزوير مستندات رسمية . الشباب فى سنك وأصغر ماتوا .. (مستدركًا) أقصد استشهدوا للدفاع عن أمثالك . الشهادة الطبية نجدتك هذه المرة لكن أقسم لك بشرفى إن تكررت هذه الواقعة لن يكون أمامك سوى السجن الحربى أوْ مستشفى الأمراض العقلية . تفضل سيادتك كوالده وقع على المحضر وعلى التعهد باتخاذ اللازم لمنع تكرار ما حدث .

* * *

الموكب يسير ببطء كمشهد من التصوير البطيء : سيارات رئاسة الجمهورية السوداء تتبعها سيارات أخرى لرئاسة الجمهورية ، ثم تليها سيارات الوزراء والمستشارين المرافقين ، وطابور مزدوج من الدراجات النارية ، ثم تظهر سيارة الرئيس بزجاجها الرمادى ، وخلفها سيارة جيب بها مجموعة من جنود الحرس الجمهورى قابضًا كل منم على مدفعه الرشاش .

المأساة محاكاة حدث جليل ، لا بالسرد ولكن بتمثيل يستثير فينا الخوف والشفقة بغية تطهيرنا من أدران انفعالاتنا .

« أرسطو »

المطاردة:

تبينت الآن الحارة التي عرجت إليها مراوغا إياهم تفضي إلى جدار. أسرعت أقفز بكل ما تبقى لي من قوة . تشبثت بقمة الحائط محاولاً رفع جسدي ، ولكنني لشدة إنهاكي سقطت ثانية ، وصوت وعيدهم يعلو ويقترب .

تحسست الجدار باحثًا عن مواضع تمكنني من التسلق فتبينت أن في وسطه ثوبا عريضًا رقيقًا تحيط به أحجار جيرية مستطيلة. لم أتردد . ركضت مندفعًا كي ألقي بنفسي هذه المرة عبر هذا الثوب ، دون أن يساورني أدنى شك في احتمال الخلاص .

البداية:

انقطاع صياحهم طمأنني ، لكن الظلام أخافني ، ولم يحدثني بالحياة سوى صوت لهاثي . أرهفت السمع متوجسًا. ترامى إلى صوت نحنحات وغمغمات لم أتمكن من تحديد مصدرها . ثم راحت تضاريس الظلام تنجلي شيئًا فشيئًا ، طيوف وظلال وأخيلة ، بعضها ثابت وبعضها يتحرك ببطء ، وأملي في النجاة ينمو مع بزوغ كل فارق .

المنظر:

قاعة واسعة معتمة. ومن هؤلاء الجالسون على المقاعد ؟ أيتطلعون إلي - أو في اسوأ تقدير صوبي ؟ أنا واقف فوق منصة ، وهم ساكنون ،

يبدون كمن نوموا تنويما مغناطيسيًا . وفى بعض الأركان لوحات صغيرة مضيئة كتب عليها كلمة "خروج" باللون الأحمر .

الحدث:

ارتطم شيء ما بصدرى فجأة ، تلاه سباب . استبعدت أن أكون المستهدف هنا أيضًا . قلت لعلها مصادفة . لكن عندما أخذ سيل من القنانى والعلب الفارغة وبقايا أطعمة وأوراق كورت تنهال على تيقنت أنى موضوع سخطهم وأن هذه القذائف تطلق من بين صفوفهم ضدى ولا أحد سواى ، فانبطحت وغطيت رأسى بيدى .

المناجاة:

_ لا .. أنا لم أفكر فى العودة قط ، فصراخ ملاحقى قبل قفزتى مازال يطن فى أذنى . وما يحدث هنا الآن هو مجرد سوء فهم أو لبس بالتأكيد ، وهؤلاء لا يعرفوننى ولا أنا أعرفهم ، وبمجرد أن أتمكن من النزول اليهم وشرح من أنا وقصة لجوئى إلى هذا المكان سيزول اللبس ، وان كان لديهم أدنى شك فى هويتى أو يرتابون لسبب ما فى نواياى أو يخلطون بينى وبين شخص ما أساء لهم أو اقترف في حقهم جرمًا فلدى من الإثباتات والبراهين تدلهم عن من أنا وأن أنا هو «أنا» ولست «هو» وأبدد بذلك كل شكوكهم ومخاوفهم ، وأضع حدًا لهذه المسرحية العبثية .

الانقلاب:

طفقت أزحف فوق المنصة أتحسس ألواحها الخشبية الملساء والجدار الجيرى باحثا عن باب أو منفذ أو حتى مخبأ ألوذ به حتى تسنح الفرصة إما لإزالة سوء التفاهم أو – إن استحال ذلك – الفرار تمامًا . بحثت دون

جدوى ، وسبابهم وسيل نفاياهم فوق رأسى لا ينقطع . لم يوقفه سوى صفير يشبه صفير سيارات النجدة الذى راح يعلو ويقترب حتى انقطع فجأة . قلت لعل هذه هى الشرطة قد هرعت لإنقاذى من بين أيادى هذا الحشد المعتوه ، فالشرطة تفهم بالتأكيد لغة المنطق والقانون والعقل وستنصت لحججى وستجد براهين برائتى دامغة .

خيم الصمت مرة أخرى حتى قطعته وقع خطى كثيرة تفاوتت في سرعتها وثقلها وهى تتحرك فى مختلف الجهات ، ثم انبعث صوت أجش من مكبر للصوت :

ـ سلم نفسك ، لا داعى لأى محاولة للهروب ، القاعة كلها محاصرة.
ثم أردف نفس الصوت بعد أن غاب لحظات :

ـ نعلم جيدًا من أنت ، ولا تضطرنا إلى استخدام العنف .أفضل لك أن تستسلم ، لدينا أوامر أن نعود بك حيًا أو ميتًا . الق بسلاحك وتقدم رافعًا يديك .

سلاحى ! هذه شرطة تبدو على يقين من إدانتى تمامًا كغيرها ، فهى قد أتت لا للقبض على مشتبه فيه وانما على سجين فار أو متهم صدر فى حقه حكم غيابى . حاولت أن أقول شيئًا دفاعًا عن نفسى لكننى لم أستطع إخراج كلمة واحدة . ولو كان هذا كابوسًا لما تمكنت من الركض والوثب كما فعلت سابقًا ، بل أننى مازلت قادرًا على الحركة . لكن ما جدوى الحركة الآن وأنا على ما يبدو محاصرًا من كل الجهات .

ـ سلم نفسك . لن تموت شهيدًا أو بطلاً كما تتصور. الكل هنا يعرف قصتك من البداية . باستطاعتك أن تنهيها نهاية أقل دموية مما يمكن أن

تكون . هذا هو اختيارك الوحيد . كفاك تلك الحركات الطفولية والسينمائية التى لا تفيد ، تعقل وفكر مليًا، هذه هى فرصتك الأخيرة كى تكون واقعيًا.

«واقعيا» ؟فكرت – ما معنى هذه الكلمة ؟

الاكتشاف:

خفت أن أرفع رأسى أو أقف كى أتحسس الثوب باحثًا عن ذلك الثقب الذى نفذت منه فترشقنى طلقاتهم . أدرت رأسى إلى أعلى كى أحدد موقعى من الحائط . رأيت دائرة من الضوء تتحرك فوقه ببطء وهم يكررون نداءهم لى بالاستسلام . زحفت ببطء وحرص شديدين صوب ركن معتقدا أنى سأجد فيه ذلك الثقب – ملاذى الوحيد ، وأنا أدير رأسى من حين لآخر لأتأكد من أن مصباحهم مازال بعيدًا عنى . وكلما رأيت دائرة الضوء على وشك الاقتراب منى سكنت مستويًا على الأرض . وصلت أخيرًا إلى نقطة تقع أسفل الثقب مباشرة . تتبعت حركة المصباح وأنا راقد على ظهرى حتى حانت الفرصة عندما كان مصوبًا إلى جهة أخرى . رفعت يدى وتحسست الثوب حتى وجدت أطراف الثقب بخيوطها الممزقة فوقفت مسرعًا كي أدخل رأسى فاصطدمت بجدار .

النهاية:

سمعت صوت طلقات نارية . أحسست بالهواء يرتد مسرعا عن قصبتى الهوائية وأنا أحاول جاهدا الشهيق والهواء ينأى عنى . شعرت بدوار فثقل فى أطرافى ، ثم فقدت ما كان قد تبقى لى من قدرة على الحركة . سقطت على ظهرى وسط بحر من الضوء .

التوحد:

أحسست بالدم يتجمع دافئًا فى حلقى ثم ينسال متعرجًا كخيط رفيع من لعاب لزج دافئ من ركن شفتى الأيسر ويغطى الأرض من حولى مكونًا دائرة داكنة الحمرة تكبر لتتخطى حدود كل جمال عرفته عيناى .. تنمو وتتسع كلما نأيت عن عالم الشعور. رأيت نفسى تتضرج فى دمى ، فتماهيتها .

الابيلوج:

تناهى إلى الصوت الأجش ينادى : نرجو من السادة الجمهور العودة إلى مقاعدهم فى هدوء كى نتمكن من استئناف العرض ، وشكرًا .

حيلة مسرحية

(ميلودراما فرويدية فى صفحتين تقريبا)

يدخل الأب قاعة تتوسطها مائدة كبيرة للطعام. يتقاطر خلفه الأبناء السبعة وفق ترتيب أعمارهم. ينبعث ضوء الشفق من نافذة كبيرة فى عمق القاعة فيبدون جميعًا كأشباح تسبح فى ضوء الشمس المشرب بالحمرة . ولا يبدد صمت القاعة سوى عواء ذئب يتناهى إلى الدار من حين لآخر .

يتقدم الأب نحو صدر المائدة ليحتل مقعده الأثير ذا الظهر العالى . يجلس ثم يشير لأبنائه كى يقف كل منهم أمام مكانه المخصص له. ثم يصفق فتدخل الأم بعودها الضامر النحيل حاملة إناءً كبيرًا فوق رأسها وهى تتقدم بخطى تنوء بما تحمل . تزيح الإناء عن رأسها ببطء لتضعها وسط المائدة ، فتكشف عن وجه غائر التجاعيد وجفنين مثقلين بحزن وكحل قديم ، يتدلى من أذنيها قرط ينعكس على فضته ضوء الشفق القانى.

تكشف عن الإناء وهى تتطلع إلى الأبناء وهم جميعا مطأطئو الرأس كمن فى صلاة ، أو كمن يتحاشى ملاقاة نظرة الخوف والتوجس فى عينها الحزينتين . تمد للأب سكينًا كبير نصلها لامع ، تجول بناظريها بين الأبناء ، ثم تتراجع ببطء حتى تنزوى فى ركن مظلم فى القاعة . وعواء الذئب يعلو ويقترب .

يشير الأب للأبناء كى يجلسوا . يدفع الابن الأكبر بالإناء مقربا إياه من متناول الأب الذى يشرع فى اقتسام الذبيحة مع أبنائه. وبينما كان هو منهمك فى التهام النصيب الأكبر يتبادل الأبناء النظرات فيقبض أكبرهم على السكين ثم يركل مقعده وينتصب واقفًا . يصيح الأب :

– ليس منى من لا يأكل من لحمى .

وتصرخ الأم وهى تندفع خارجة من الركن المعتم :

– لا ... لا .. لا .. انها لعنة الربة ذات العيون النحاسية .

يلتف الأبناء حول أبيهم الذى تجمد فى ذهوله . يرفع كبيرهم السكين ببطء وإصرار ليهوى بها على رقبته ويمضى أخوته يفعلون بالمثل . ثم يجرى أصغرهم ليعود حاملاً إناء أبيض ليملأه بدم الأب المتدفق .

وعواء الذئب يعلو ولا ينقطع والأم تدور وتصرخ :

– خمس أصابع مخمسة فى وجه الربة ذات العيون النحاسية ..

يغمس كل ابن من الأولاد السبعة يديه فى الإناء الذى أتى به أصغرهم ، ثم يمسح وجهه وعنقه بالدم . ثم يدورون يطبعون كفوفهم على جدران القاعة .

تغيب الشمس فتغرق القاعة فى ظلام دامس . يختلط أنين الأم بعواء الذئب الذى راح يتباعد ويضعف ، ثم تتوهج بصمات الأكف الدامية على الجدران بضوء أحمر خافت يعيد إلى القاعة توهجها بشفق البداية ويصطف الأبناء خلف الأخ الأكبر ليؤمهم فى طقس يشبه صلاة .

ينسدل الستار ويصفق الجمهور . يخرج بعد لحظات مدير المسرح مذعورًا ، يطلب منهم الانصراف فى هدوء فقد وقعت بالفعل مأساة ، إذ استبدلت سكين الحيل المسرحية عن خطأ بسكين حقيقية .

« فى كل الفنون نجد نفس الطريقة التى يعنيها الفيلم - المونتاج »

سيرجى أيزنشتاين

ترى ما سر ذلك الانتفاخ الطفيف أسفل العينين العسليتين ؟ هل بكت حتى نضبت مقلتاها أم هو أرق لهفة اللقاء الذى أقض مضاجعها ؟ أغصة فى الحلق تلك التى يراها فى صعود الحنجرة وهبوطها فوق عقد اللؤلؤ المستكين حول عنقها الأرستقراطى المنبثق من صدر رخامى وافر النهدين ، أم أنها ممثلة مخضرمة لا أكثر وما عليه سوى أن يندمج فى أداء دوره هو الآخر ؟

يتطلع إليها بخليط من نهم شهوانى ولوعة رومانسية ، يتوقف عند الحدود الباهتة بين بشرتها القمحية والشفتين المكتنزتين على فم يستحث كل ناظر على التقبيل ، ثم يمضى يتأمل شعرها الكستنائى الناعم الكث ، وانسياب قوس جبهتها فوق أنفها الرومانى الحاد . لكم هى قريبة الآن ، وبعيدة مخاتلة ، بل مستحيلة كما كانت أبدا . ورغم ذلك لا يفارقه الأمل بأن تنبس بالكلمة التى ستحيل الحلم حقيقة والمستحيل ممكنًا فى بداية روايتهما .

كم من مرة شاهد هذا الفيلم دون أن يضعف ذلك من عنفوان الأمل المراهق وخداع النفس اللذيذ ، لكن ما هو سر التوحد بالبطل المهزوم؟

كعادته يتسلق فى يسر المسافة التى تفصل بين المقعد الخشبى الصلب وصفير أقرانه المراهقين ، اكتظاظ الأنفاس ، سحب دخان السجاير الخانق، رائحة العرق النفاذة وبين رحابه الخيال التى ستسيره حتمًا إلى مضائق الرغبة وآلامها .. هل أقول «حشرجاتها» ، أم أن تلك ستفضح مزاجًا يجنح بطبعه إلى المبالغة والتهويل فتتقوض بذلك دعائم مصداقية

راو يطمح كغيره من ضحايا الخيال وأبطاله إلى استهداف السواد الأعظم والجماهير العريضة أو العادى والمألوف ؟

هبت نسمة باردة خفيفة فلملمت شال الفراء حول كتفيها النحيفتين ، وترقرقت دمعة تحجرت في عينيها فأزادتهما بريقًا انعكست عليه مصابيح الكورنيش الخافتة (وضوء القمر أيضًا ، لمن يشاء) فأضفى كل ذلك على المشهد صدقًا رومانسيًا غير متعمد .

قالت بصوت يرتجف:

–لقد علم والدنا بعلاقتنا فقرر أن يرسلنى إلى العزبة عند عمتى .

كاد صوتها يتلاشى فى نهاية الجملة . فسألها وهو يضغط على مخارج الألفاظ كما كان يفعل شكرى سرحان عندما ينفعل ويحتد:

– وما هو قرارك أنت ؟

نظرت إلى أسفل ثم قالت:

– ليس أمامى سوى سبيل واحد .

– وهو ...؟ (سألها بعصبية ممعنًا فى إيلام ذاته)

–انت تعرف والدى جيدًا وهو رجل ذو نفوذ واسع ، ولن يخفى عليه أى ثقب فى العالم أينما ذهبنا ..

كلاكت

اسم الفيلم : فيلم مصرى قديم جدًا

رقم المشهد : قبل الأخير

جاءنى صوتها مبللاً بالدموع فأفاقتنى من حلمى القصير . ينخفض صوت الموسيقى التصويرية (التى أعدها بالطبع فؤاد الظاهرى) ليفسح لصوتها المتهدج المجال :

–بابا عرف ان إحنا على علاقة ببعض ، عشان كده قرر يبعتنى أقعد فى العزبة لحد ما ...

– وإيه رأيك أنت ؟

–بابا وماما مصرين ، خاصة بعد ما "شوكت" اتقدم لى ...انت عارف ان بابا كان لا يمكن ها يوافق .

–وانت كمان موافقة ؟

يرتفع صوت موسيقى الوتريات .

– أنا ما فيش قدامى غير طريق واحد.

–وايه هو الطريق ده ..

قالها وهو يتنفس بعمق وبسرعة وبصوت مسموع (مثلما كان يفعل عبد الحليم حافظ ، عندما كان يود إقناعنا بأنه حقًا منفعل)

ـ حتى لو عملنا زى ما اتفقنا كان هيلاقينا فى أى مكان فى العالم.. أحسن حل ان إحنا ...

موسيقى تصويرية فقط

أحسن بالأرض تهرب من تحت قدميه وأصابه قليل من الدوار، فاتكأ على سور الكورنيش الحديدى البارد كى لا يفقد توازنه . مسح العرق المتصبب من جبهته . حاول أن يتكلم لكنه تلعثم وازدادت ضربات قلبه سرعة مع ارتفاع صوت الموسيقى التصويرية : البيانو يصرخ محتجا متألما فى كبرياء والوتريات تجيبه بنغمات متموجة جارفة بإيقاع يشبه مسيرة جنائزية . تتحرك الكاميرا ببطء حتى يظهر كلاهما متجاورين وخلفهما شراع مركب تتهادى على صفحة الماء ، وكنشرتو راحمانينوف "نازل ع المالى و ع البطال" ، حتى قاطعه صوت بوق السيارة ، فنظرت صوب مدخل الأوتيل الفاخر وقالت :

–ده لازم الشوفير.. لازم أمشى قبل ما يشوفنا مع بعض تانى .. بابا حلف . أرجوك ..

ثم انصرفت وهو يراقبها تبتعد لتختفى فى البويك الكابورليه السوداء .

كلاكت

رقم المشهد : قبل الأخير

اسم الفيلم : نفس الاسم

رقم مرات التصوير: مش مهم

– أنا مسافر بكره يا منى

– للعلاج ؟ (متهكمة).

–لأ ..للدراسة .

–دراسة إيه ؟

– الدراسة. هى دى عايزه سؤال .

– وأنا ؟

– ها أكتب لك .

– البعيد عن العين ..

– ما فيش قدامى غير كده عشان أبنى مستقبلى .. مستقبلنا .

– ابنيه هنا .

– ده عشانا إحنا الاتنين .

– ابنيه هنا .

– أنا مخنوق هنا ، مش قادر أتنفس .

– هناك هاتتخنق اكتر ، زى السمك اللى بيطلع م الميه . واللى يزرع ورده فى الصحرا أحسن م اللى يروى زرع فى أرض طول عمرها خضرا .

– إيه الكلام الفاضى ده ، انت بقيتى شاعره مره واحده كده ولا إيه . أنا خلاص قررت .

– طيب مع السلامة . مع ألف سلامة ، بس اوعى تنسى حاجة واحدة بس : اياك تكتب لى أى جواب .

وإلى عشاق الموسيقى التصويرية لحن " يا باهية وخبرينى " موزع مع الناى والتشيلو لاختتام المشهد وهو يسير عائدًا فى الليل إلى منزله فى

حى من أحياء المدينة المكتظ بسكانه وكلابه وقططه وقمامته وضجيجه الذى لا ينقطع ليلاً ونهاراً .

استدار متجهًا إلى محطة الأتوبيس . يقفز تارة صوب اليمين وتارة صوب اليسار ليتلافى المستنقعات الصغيرة .وأدرك عند اقترابه من المحطة الخالية أنه قد فاتته آخر حافلة . عبر الميدان الذى لم يبق فيه سوى بعض عساكر الأمن المركزى . انعطف مارًا بمبنى الجريدة اليومية الكبيرة، فلاقاه عدد من الأطفال بائعى الجرائد الصباحية قبل بزوغ الفجر .

«الجرنان بتاع بكره الجرنان بتاع بكره» غمغم : آه بكره .

البطل المهزوم

يبدو المنظر من بعيد كلوحة سوداء كبيرة تندفع من أعماقها خطوط بيضاء أفقية متعرجة لتصطدم بكتل فى الجزء الأسفل من الإطار فتتحول فور ارتطامها إلى نقط بلورية شفافة أقرب إلى رذاذ مضىء . ترتفع النقط المتناثرة وتحلق عاليًا لثوان ثم تتهاوى ببطء حتى تختفى فى قلب المساحة السوداء فى مقدمة الصورة . لا تكاد تلك النقاط تذوب فى السواد حتى يظهر خط أبيض جديد يندفع بشدة صوب المقدمة ، ثم يتكرر نفس المشهد ، وهو يسير بخطى بطيئة رافعًا ياقة المعطف السميك وملتحفًا كوفيه من الحرير. يقف أمام مجموعة من الأشجار السامقة بدت فروعها العارية الملتوية كأذرع تضرع إلى سماء تلبدت سحبها والأمواج تتلاطم خلفه وهو يدندن :فهل منكم من يعرف بأى لحن شهير عن الجرح الذى لا يندمل والحب المستحيل والإخلاص النبيل قبل أن يسافر البطل الشهير للخارج ـ لا من أجل الدراسة هذه المرة ولكن للعلاج ـ سيترنم بطلنا ملتاعًا؟

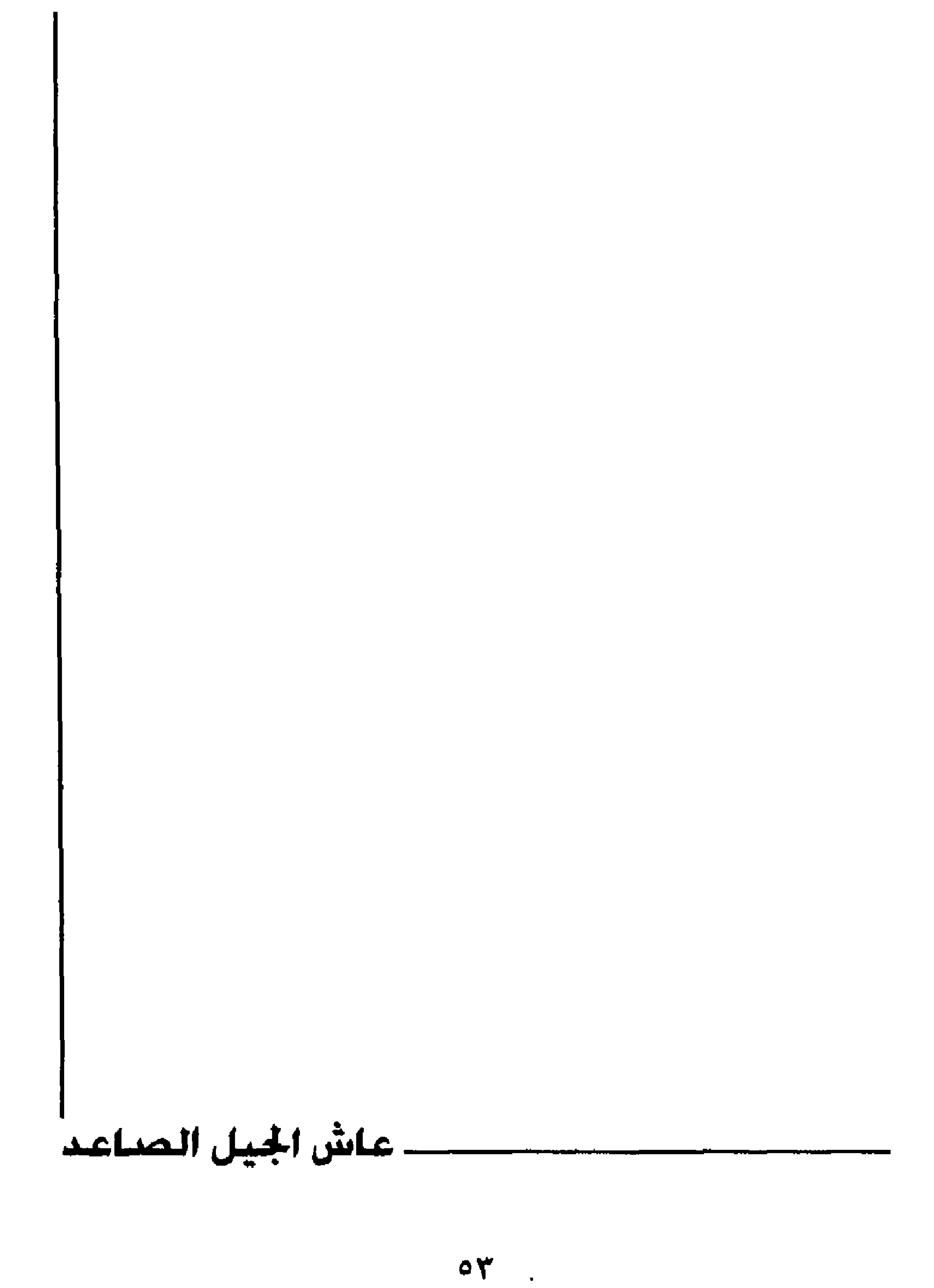
يتضاءل حتى يصير نقطة صغيرة سوداء على الشاشة وقد تناثرت فوقها مساحات متفاوتة الكبر والسواد . ثم تظهر فجأة كلمة "النهاية" صغيرة فى العمق لتندفع إلى الأمام وتكبر بسرعة، وعند استقرارها وسط الشاشة ينبعث صفير حاد وسباب لصاحب دار العرض من جمهور أغلبه من طلبة المدارس «المزوغين» .

يضعف الضجيج والصياح تدريجيًا مع فتح النوافذ الجانبية لقاعة العرض . تسقط خيوط الشمس القاسية على عيون اعتادت الظلام لساعات . ذرات متناهية الصغر تسبح فى الضوء فتبدو ككائنات صغيرة حبيسة عالم سرعان ما سيتلاشى بحلول الظلام عندما تغلق الأبواب والنوافذ وتطفأ الأنوار مرة أخرى لاستئناف العرض .

صوت الراوى الرخيم من هو بالسرائر عليم (حسين رياض فى أغلب الظن)

يقول الراوى بصوت آت من سماء تتوسطها شمس لا ترحم : ها هم وقد أفاقوا من نوم والأحلام لم تزل بجفونهم عالقة . جمهور غفير ينسال من خيال وظلام فتتلقفه شوارع المدينة المكفهرة . أغلبه من الذكور المراهقين . إناثهم قلة ، يحيط بهن الأخوة درءا لكل لمسة من غريب أو احتكاك مراهق جائع . ومن هذا الذى يلاحقهن ؟ أحارس هو أم واحد من الحالمين يصبو إلى الفوز ولو بملامسة طفيفة ليقتات بها خياله شهورًا طوال وتصبح مغامرة يتباهى بها بين أقرانه ؟ وهاك آخر يتثاءب مادًا ذراعيه فى كل الاتجاهات ، لعله يتوق هو الآخر للقبض على خيال توارى فى ثنايا الضوء الحارق . وذلك الذى يشرئب ببدنه ... ترى من سيفوز بقبلة

وداع نجمته الأثيرة الآفلة ؟ أما من تحصنوا بالانشغال بالهموم البسيطة والحاجات الملحة لدرء سطوة الخيال فمنهم من مضى يهندم سرواله ولباسه الداخلى كمن خرج لتوه من مرحاض غير عابئ بأن جنح الظلام لم يعد يواريه، وآخر يمشط شعره متخذاً من نظارة رفيقه الشمسية مرآة، وثالث يعقد رباط حذائه ، وهذا يفرك عينيه الحمراوين أثر ارتطام ضوء الشمس الحارق بهما. تنبعث من بينهم رائحة عطنة كتلك التى تفوح من مخدع يغص بنيامه وهم يتجاذبون الغطاء والأحلام فيهم متفشية. وعندما يغمرهم ضوء الصباح تفر أمامه خبايا الليل ومكنون ظلماته وهفواته الحالمة لتلوذ بثنايا الفراش والأوسدة وصخب الحياة اليومى وهى تتحرق لانعتاقها مرة أخرى من مملكة النور كى تصحو وتتكاثر بين تلابيب ظلام قطيفى حان فى عرض مستمر .



وقف أحمد على حافة الرصيف ينظر يمينه و يساره لا يجرؤ على عبور الشارع وحده، وسيل من السيارات المسرعة فى الاتجاهين لا ينقطع . انتظر عسى أن يعبر رجل فيطلب منه العون كما علمته أمه . طال انتظاره ، لكن دون جدوى . راح يتطلع إلى شرفة منزلهم على أمل أن تظهر لجمع الغسيل كعادتها عندما ترى عبوس السماء ينذر بالمطر. حتمًا ستظهر الآن خوفا على الغسيل من البلل .لكنها لم تخرج إلى الشرفة هذه المرة !

بزغ على رأس الطريق طابور طويل من الشاحنات الميرى المحملة بالعساكر ظلت تقطع الطريق مسرعة ، ثم تلتها شاحنات محملة بفلاحين وصعايدة يحملون رايات كبيرة ويرددون هتافات كلها تأييد للرئيس وللجيش . كلت ساقاه من الانتظار الطويل ولا يبدو لهذا السيل من السيارات نهاية ، فقرر لأول مرة أن يخاطر ويعبر الطريق وحده .

كان أحمد عائدًا من المدرسة بعد يوم شاق ممل ، مازالت تطن فى أذنيه عبارات مثل «الامبريالية والقضاء على الاستعمار وأذنابه» ، لغة لا يفهمها على الاطلاق تمامًا مثل لغة القرآن . حقيبته ثقيلة منتفخة بكتب جَدْوَل اليوم ، كتب خالية معظمها من الصور . وأحمد يعشق الصور . الصور الوحيدة كانت فى كتاب التاريخ ، لكنها صور رمادية مطموسة المعالم لرجال مطربشين أو شيوخ ملتحين ، ولكنه يجد فيها على أى حال ملاذًا من الكتابة التى لا نهاية لها والتى لا يتقد لها خياله على الاطلاق . كما خلا اليوم من حصة الرسم المفضلة، وعوقب مع صفه عقابًا جماعيًا بسبب الضوضاء والشغب أثناء الفسحة، وما ذنبه هو ؟ وعقاب آخر لأنه لم يجلِّد الكراريس بورق السوليفان الأزرق وفوق كل ذلك وذاك فهو لم ير ليلى اليوم .

حتى حصة الموسيقى أصبح يرتعد خوفًا من مدرسها ، الأستاذ فرغلى ، وخرزانته الطويلة ومزاجه العكر الذى لا يمكن التنبأ به ، وتهديده المستمر أن يقرط أذن من لا يرفع صوته فى الغناء بالكماشه التى كان يستخدمها لاستصلاح عوده . والأغانى كلها أناشيد وطنية : عاش الجيل الصاعد ودقت ساعة العمل والله زمان يا سلاحى وطبعًا الله أكبر وكمان فوق كيد المعتدى .

لم يكن يفهم سر تعلقه بليلى ، التى كان لا يراها إلا فى الفسحة وهى تلعب فقط مع البنات ، ولا تخالط الصبيان الأشقياء. كان ينتظر هذه اللحظة طوال اليوم، وعندما يراها يتجمد ويعجز عن الكلام . كانت تغيب عن المدرسة لأيام أحيانًا وعندما تعود فى سيارة سوداء فارهة لا تعاقب كغيرها من التلاميذ ولا تستدعى إلى حجرة الناظر الذى رآه مرة يقبل يدها أمام والدها . لم يفهم سر المعاملة الخاصة ، لكنها كانت رشيقة وجميلة ، وهو لم يجرؤ على أن يكلمها مرة واحدة ، رغم أنه كان يسعى دائمًا أن يكون فى مجال رؤيتها . كان يستلذ ذلك الشعور الغامض الذى ينتشر فى جسمه كلما رآها، لكنه كان يحدس أن قوة ما تفصل بين عالمه وعالمها : السيارة التى تنقلها كل يوم إلى المدرسة ، معاملة المدرسين الخاصة لها ورغم الزى المدرسى الموحد كان يرى أن قماش وتفصيل زيها مختلف ، ويرى أنها لا تشترى طعامًا من الكانتين مثل أقرانها . ترى أين تسكن ؟ ولم تقاطع الكانتين ؟ لكنه رغم ذلك لم يتسرب إلى نفسه شك أن هذه فوارق لا تعنى شيئًا ، هذا هو الدرس الذى علمته إياه حصص التربية الوطنية والميثاق والأفلام التى كانت تنتهى دائمًا بالباشا يتخلى عن اعتراضه

على زواج ابنته من ابن ناظر العزبة لأن العمل حق وواجب وشرف ، مفضلاً ابن الموظف البسيط على ابن خالتها الرقيع العاطل بالوراثة .

* * *

ارتفعت أصوات الجالسين على المقهى وقد التفوا فى دوائر حول لاعبى الطاولة والكوتشينة، منهم المشاهد المشجع وغير المبال لا يسعه سوى قتل الوقت كغيره من رواد المقهى العتيق. ثم انطلق فجأة صوت جمهورى من المذياع فتوقف بعض المارة فى الشارع للإنصات وترك الجالسون مقاعدهم ليدنوا من الراديو ...اقتربوا وتسمروا فى وقفتهم ، كف اللاعبون عن اللعب والأوراق فى أيديهم، سكن النرد وسط الإطار الخشبى ، وتعلقت يد فى الهواء كان صاحبها على وشك أن يصيح «بصرة» ، وتجمدت فى حلق لاعب الشطرنج المحنك عبارة اعتاد أن يلقظها بزهو ونزق «كش ملك» . ارتطمت يد بطاولة المقهى المعدنية النحيفة فهوى كوب شاى على الأرض متكسرًا . وصاروا لحظة تجمدت فى قبضة الزمن وبين براثن ضوء الظهيرة القاسى ، حتى كادت ملامحهم جميعًا تنبس بوقع فاجعة وقعت أو على وشك الوقوع : الفم فاغر والعيون جاحظة ، وبلورات العرق تتجمع فى تجاعيد وجوه لوحتها الشمس .. ثم يستأنف الصوت الزاعق خطابه القديم : أيها الأخوة المواطنون ، باسم الأمة ، يا جماهير شعبنا العريق ، إنها لحظة حاسمة فى تاريخ نضال أمتنا العادل ، لقد كتب عليكم ....، والله أكبر وفوق المعتدى ، أيها الأخوة المواطنون ولقد ثبت لدينا فيما لا يدع مجالا للشك ....، سيداتى آنساتى سادتى جاءنا البلاغ العسكرى التالى ، أيها الأخوة إن هذه إلا ... ولم تأت المعركة الحقيقية بعد، وقواتنا تدافع ببسالة ... ويجب أن نتصدى للمؤامرات ...

ويا ويل عدو التار ، وأخى جاوز الظالمون المدى ، ويا أغلى اسم فى الوجود ، ويلدنا ع الترعة بتغسل شعرها ، جاها نهار ماقدرش يدفع مهرها .

كان أحمد لا يجتهد إلا فيما يحب من مواد : الرسم والألعاب . كان دائم السرحان ، يفكر طوال الوقت فيما هو ليس هنا ولا هو الآن ، وكان دوما "هناك" و«حينئذ» حتى توقظه يد المعلم الغليظة المعفره بالطباشير وهى تهوى على صدغه أو تشد أذنه : وما هو رمز اللون الأحمر فى علمنا ؟ وماذا يعنى الأخضر والأبيض؟ والنجمتان ؟ لقد صاروا ثلاثة اليوم .. لا تجادل أجب على سؤالى «وبطل لماضة» ....ططططاااخ . قتل أحمد وهو يعبر الشارع ومازالت أمه ترتدى ثياب الحداد .

* * *

أحمد نقطة متناهية الصغر – فسيفساء فى نسق لا يراه هو ولا أى من آلاف النقاط أمثاله فوق أرض الاستاد ، يشكلون فياضانًا ، ثم نيلاً يتحول مجراه ، ويرسمون بأجسامهم النحيلة على أرض الاستاد الخضراء بوابات سد عملاق ومحولات الكهرباء فى حضور الضيف الكبير فى عيد الثورة وهم يغنون : أنا النور أنا نور أسوان سعد ووعد من الرحمن . أحمد نقطة فى علم ، فى خريطة العالم ، فى وجه الزعيم وفى وجه الضيف .أحمد يتفوق فى المدرسة ويصافح الرئيس فى عيد العلم ، ونجاة الصغيرة تغنى له «عاش الطالب» يليها استعراض عسكرى فى التليفزيون وصور حشود الجماهير فى ميدان عابدين تهلل للقائد وهو يخطب ، وعبد الحليم يغنى: ضربة كانت للمعلم ، خلا الاستعمار يبلم ...!

مُسَلسلَة بالصَبا

-لقطات نَمطية-

« الصبا حديث محب مغتبط صارع الدهر وأرغم أنف البين »
(جبران خليل جبران)

الغناء

ها هى فى ركنها المعتاد تنصت إلى إذاعة أم كلثوم . تزدان أساريرها بمزيد من الكدر وتبكى عند المقطع الذى تقول فيه الست : «غصبت روحى على الهجران وانت هواك يجرى فى دمى وفضلت أفكر فى النسيان حتى بقى النسيان همى» . وتنهمر دموعها مع «عودت عينى» وهى تردد "وقلبى سلم ... سلم لك أمرى" . وإحقاقا للحق ولحدسها «الأم كلثومى» الناضج فان لحظة الانهمار وقعت بالتحديد أثناء الثانية القاتلة بين «سلم» الأولى و«سلم» الثانية. ثم اختلط بكاؤها بابتسامة طفيفة لما صدحت الست «وتغضب لما أقول لك يوم يا ظالمنى» . وعندما أخذ فريد يغنى بصحبة المجموعة «ظالم وياحبه من روحى ، قاسى وفى بعده طال نوحى ، ليه الظلم ليه ..ليه ليه ، ليه القسوة ليه ،ليه ليه " كانت مقلتاها قد نضبتا ، واعتلى جبهتها شحوب زاده المنديل الأسود المنعقد عليها شحوبا . فنهرتها ابنة خالتها قائلة :

– ما تفكى المنديل ده .. انت عامله زى اللى مات لها عزيز ، فكيه يا شيخة لجل ما يفرجها علينا وعليكى ، وما تحبيكهاش قوى كده ، لا هى دى أول ولا أخر مرة .

أجل ، عزيز لم يمت بعد . أما إذا ما كان الكريم سيجود بالفرج وما إذا كانت ستلبى رجاء بنت خالتها ، فهذا ما لا علم لأحد به الآن. فهى قد قررت على أى حال ألا تعود إليه بعدما بدر منه هذا المساء ، ثم لجأت إلى الأقارب مستنجدة تنتظر أن يأتى أخوها الكبير من «البلد» لتعود معه .

ها هى تغلق الراديو الترانزيستور ... أرجوك، تريث يا عزيزى القارئ ولا تستبق الأحداث ، إذا كانت مقاطعتها للبث الإذاعى علامة من علامات الفرج أم لا فهذا أمر لايزال فى لحظتنا هذه فى علم الغيب .

انظر .. ها هى تستدير لمواجهة التليفزيون ريثما يبدأ المسلسل . ألم أحذرك من التسرع !

ذكر البط :

اندهش وتوجس شرًا لما رأى ذكر البط مازال على قيد الحياة ، يتبختر كعادته ويصدر صوته المميز المبحوح – أقرب إلى الفحيح منه الى الصئ – وكاد ينزلق على رجيعه وهو يندفع متجها إلى باب غرفتها فوق سطح العمارة فأرغى – الغرفة مظلمة – وأزبد . وأين عائشة وأين العشاء ؟ عاد مبكرا على غير عادته من الدكان ، وعادت هى واثقة من أنه لم يعد بعد . فكان اللى كان . هو جائع يحلم بالوجبة الدسمة طوال اليوم ، فضلاً عن أن اليوم يوم الخميس .. وهى .. أين هى ؟ أين كانت ؟ انطقى .. اتكلمى يا بنت الكلب .. أمال أنا متجوزك ليه .. حاتخريبى بيتى الله يخرب .....طاااااااااخ طخ .

البكاء

غضبت عائشة. لكن هل فاض بها الكيل وقسم ظهر البعير ولم تعد تحتمل المزيد كما تعتقد هى أنها حين كانت تصرخ وهى تدق على باب شقة ابنة خالتها؟ هل غضبت تألما من اعتدائه الوحشى الذى امتثلت له وتأقلمت عليه منذ أيام زواجهما الأولى ؟ هل أكسبها التعود نوعًا من المناعة ؟ كلا يا عزيزى القارئ هذه تصورات سادية ساذجة تنم عن جهل

بالطبيعة البشرية عامة وبعائشة خاصة ، فهى أكثر حنكة وذكاء من مروجى هذه الأفكار المازوخية المبسطة ، أفكار العاجزين عن الربط بين بنى المجتمع الفوقية والتحتية بشكل ديالكتيكى محكم خال من الأطروحات والمسلمات المثالية الرجعية الميتافيزيقية المنشأ والمآل . صدقنى ، عائشة لم تستعذب الألم ولم تستمرئه ، وإنما – أجل – احترفته، فهى فضلاً عن كونها زوجة عزيز وعن عملها الإضافى كخادمة تعمل أحيانًا وحسب سوق العرض والطلب والأجال ... ماذا ؟

مبالغة ؟ تعال اذًا كى ترى بنفسك ، فمن حسن حظى – وحظها – أن اليوم صعدت فيه أرواح كثيرة إلى بارئها فى الأحياء المجاورة ... تعال ... تعال ، فهؤلاء أولاد بلد لا يجرحهم فضول امثالنا ..

العمل:

ثلاث قطع دفعة واحده : ميت طازج فى الصباح وخميسان أحدهما ظهرًا والآخر مساءً فى الظهر وبعده . بكت وولولت وناحت وصرخت وتأوهت ولطمت خديها ومزقت طرحتين وسط زمرة من الندابات يشحذن همم أهل الميت ويؤازرهن بكاء . أنظر كيف يتفنن فى إطلاق أشد الصرخات حسرة وانفجاعًا وكيف يتنافسن فى تعبيراتهن : لفّت إحداهن غطاء رأسها حول عنقها وراحت تجذبه من طرفيه حتى كادت تخنق نفسها وهى تصرخ وتدور إلى أن أعياها الدوار فسقطت ، ورفعت أخرى الطرحة السوداء عاليًا فوق رأسها وهى تميل مولولة بجسدها يمينًا ويسارا، و ثالثة جثمت على ركبتيها ثم أخذت تسجد وتقوم كمن تهيل ترابًا على رأسها نائحة غارقة فى الدموع ، وأخرى شقت صدر ثوبها ورقدت على ظهرها تنتفض كمن أصابتها نوبة من الصرع . أتستطيع أن تميز بين انفجاعهن

وانفجاع أهل الفقيد ؟ ما أبرعهن ممثلات ! هذه صناعة عريقة - أعرق من تلك الأخرى - دون قيمة فائض ودون استغلال .. أولم أقل لك أن مجتمعنا لا يقبل التوصيفات المبسطة والمستوردة ؟

وهو:

لا علم له باحترافها ثانى المهن العريقة . لماذا؟ أرجوك لا تتسرع فى الحكم عليها مرة أخرى ، فهى بنت حلال عن حق، بل إنها أيضًا - وهذا ما هو أهم - بنت بلد وقد تتعدد الأسباب ... المهم هذا موضوع يطول شرحه ، والمسلسل قد أوشك على البدء الآن، وها هى الأسرة كلها قد التفت أمام الشاشة لصغيرة وفى يد كل واحد كوب من الشاى . أرجوك سامحنى لأنى أريد مشاهدة الحلقة الأخيرة من المسلسل الممتع واحتساء الشاى قبل أن يبرد ، فلتقبل استطرادى هذا ، وسوف أعود اليك فور انتهاء الحلقة الأخيرة .

المسلسل:

« أما الأن فكد حان ساداتى أنساتى سادتى موعد الحلكة الأخيرة من المسلسل التليفزيونى الشيك بتولة الممسل الكبير والكدير وتأليف الكاتب الكبير واخراج المخرج الكبير خالس ...»

كان البطل فى الحلقة السابقة قد أصيب بالعمى إثر أزمة عاطفية فور هروب زوجته مع أعز أصدقائه،وفى بداية حلقة اليوم دخلت عليه ابنة عمه التى غدر بها بعد أن كانا أصدقاء العمر منذ الطفولة وتواعدا على الزواج وقال الأب للأب أن وفاء لصابر وصابر لوفاء . لكنه نقض وعد الأبوين وخيّب ظنهما وسقط فى الهاوية .. فى حب غازية ، ثم تزوجها رغم معارضة العائلة والتهديد بالحرمان من الميراث والذبحة التى أصابت

الأب والشلل الذى أقعد الأم ، و ها هى (الغازية) قد تركته الآن بعد أن أضاعت كل أمواله وهربت مع من ائتمنه على أعز ما يملك .. حكمتك يا رب ... والله يا زمن مكتوب .. واللى انكتب .. لازم نشوفه . (لحن المقدمة) .. انفتح الباب تدريجيا وظهرت وفاء مترددة ، فقال: مين ؟ تقدمت بخطوات بطيئة وقد أغرورقت عيناها بالدموع وشفتاها ترتجفان : دا أنا يا صابر. ولما يتعرف على صوتها سألها :إنت مين ؟ أنا .. أنا .. وفاء يا .. يا صابر. وفاء ؟ وفاء مين ؟ نسيتنى يا صابر! أنا وفاء بنت عمك . وفاء ! وفاء بنت عمى ! (موسيقى كلاسيكية عاصفة ، يليها ناى حزين يظل فى الخلفية أثناء الحوار التالى) عايزه إيه؟ جيت أطمن عليك يا صابر . تتطمنى ولا تشمتى فيا! عيب ما تقولش كده يا صابر داحنا أهل ولبعضنا . سيبينى سيبينى لوحدى مش عايز حاجة مش عايز حد . أنت محتاج حد يكون جنبك فى وقت زى ده ياصابر . أنا .. أنا مش محتاج حد ما بثقش فى حد . (صوت الناى يعلو وينخفض) . بس أنا مش أى أحد يا صابر ، ده أنا وفاء يا صابر والدم مهما كان ما يصيرش ميه ، (صوت الناى يعلو وينخفض) كلكم زى بعض ، ما فيش فرق بين واحده والتانية ، كلكم خونة .. خونة .. خونة...(الموسيقى ترتفع ثم تهدأ مرة أخرى) أنا ما تغيرتش يا صابر ، الزمن يغير كل شيء ، إلا أنا يا صابر . (دموع عائشة تسح على خديها وهى مرتكنة برأسها إلى الحائط) ما تسخريش منى . أنا ما جيتش عشان أسخر منك ، لكن عشان اثبت لك .. كفاية كفاية .. كفاية . (لحن ربابة باك) مش مكفيكى العذاب اللى أنا فيه ، لازم تفكرينى باللى راح . أرجوك يا صابر افهمنى أنا ما جيتش عشان أفكرك ، أنا .. تقترب منه وتضع يدها على كتفه . يدفعها محاولا القيام والابتعاد عنها فيتعثر ويقع على الأرض . وفاء تهبط بجواره والكاميرا تقترب من وجهيهما حتى يظهرا فى لقطة كبيرة . يرفع رأسه وتبدو عليه علامة اندهاش و فرح . (موسيقى وتريات

ترتعش .) مش معقول ، مش معقول.. أحمدك يا رب . ترتفع الموسيقى وهو يتجه إلى النافذة ليفتحها . ناقوس الباب يقرع : بنت الجيران جاءت تحمل لعائشة رسالة من زوجها الذى أقسم وتوعد ، فتوسطت ابنة الخالة ، لا تقلقى يا أختى ، فهذا مسلسل رائع وحتما أكيد سيعاد بثه قريبًا أو من يدرى ، فقد يعاد حتى فى رمضان إن أراد ربنا ، وماذا سيقول أهلها والجيران إن خرجت غاضبة أو مغضوب عليها ، وهو من لحمك ودمك ، والدم عُمره ما يبقى ميه ، والمسامح كريم ، و"الضفر مايطلعش من اللحم" وانتى أصيلة وبنت حلال وبنت بلد (شفت مش قلت لك !) وبنت أصول وتعرفى الواجب والعيب والصح من الغلط .

البطل:

سمه عبده إن شئت هذه المرة ، عبد من عبيده التسعة والتسعين . ولولا الضرورة الروائية لما أضعت وقتك الثمين بوصف أعتقد أنك تعرفه جيدًا ، ولنتذرع بتقليد أدبى آخر ، قل إنه تنويعة على تيمة أساسية ، فأنت لا تكاد تقول إن إحدى عينيه فقعت فى شجار دام حتى تجده ماثلاً أمامك يكشر عن سنتين فضيتين أو ذهبيتين ملتحفًا بشال أبيض ، نحيف طويل ، عينه السليمة رمادية كبيرة يزيدها اتساعًا ضمور الأخرى ، فى فوديه شيب واضح ، يغطى رأسه الصلعاء كوفية لونها بنى عقدها على شكل عمامة ، وفوق الجلباب الرمادى معطف رملى اللون ، يعمل بإحدى محلات العطاره بالحسين . صوته داكن أجوف ، مغرم بالنكات الخليعة ، دائم المباهاة والحديث عن فحولته ومغامراته النسائية ، يبادر دائمًا بتقديم النصح لأقرانه عن أى التوابل والبهارات و أى الطيور أو أى جزء من الذبيحة أفضل .

وعائشة بدينة ، نصيبها من الجمال أو الحسن قليل ، لكن بشرتها البيضاء وشعرها الأشقر - كبنات كثيرات من بلدتها - ونهديها العملاقين وردفيها مترامى الأطراف - اللذين يترجرجان فى تهاديهما وهى تسير فيشيا بطراوة يسيل لها لعاب كل الجالسين على المقهى : مراهقين ومتقاعدين وعميان تتشفع لها عند ذكور الحى كله الذين لا يبذلون أدنى جهد فى إخفاء جوعهم كلما مرت بهم ، وهو ما يزيد من غضب وحنق عبده ، وافتخاره فى نفس الوقت .

البنون والمال:

وهو لم يؤت منها ذرية أو لم تنجب هى منه على حد تعبيره ، فهو لا يتسرب لنفسه شك فى أن العيب هو عيب عائشة ، وأنها قسما بالله العظيم لعاقر، ولولا أنهما أهل لطلقها منذ أن فقد أمله فيها ، وبإمكانه - لو أراد ، بمجرد أن يحقق حلمه بشراء الدكان - أن يتزوج من صبية تنجب له جيشا كاملاً .

وهو لا يأمن لعائشة ، ولا تأمن عائشة له . يشك فى أنها تطمع فيه لأنها لم تنجب له، ولنفس السبب لا تسكن هى له . من يدرى فقد يأتيها بضرة ، فلابد من الاحتياط منه ومن غدره ، ولذا تعمل عملها السرى الإضافى كى تدخر لشراء «حتة صيغة» تذود بها عن نفسها من غيلة الزمن ، ولا تفوتها فرصة كى "تخنصر" من مصروف البيت لتدخر ما ينفعها فى اليوم الأسود، فالأسعار فى ارتفاع مستمر ، الغلاء كالنار وما ذنبها هى فى جشع التجار ! وإن كان لا يصدقها ، فها هى مضطرة للخدمة فى البيوت كى تستكمل مصروف البيت . وهو بالطبع لا يصدقها .

جربت كل الوصفات الشعبية والمستوردة ، وزارت كل الأولياء الصالحين والمشايخ الطيبين والأطباء والحكماء والمختصين دون جدوى

فى رفع ما حكمت به السماء أو عزيز ، فهو قد رفض بشكل قاطع أن يضع نفسه بين يدى أى طبيب أو حكيم ، فخصويته لا يشوبها شائبة ، ولا يمكن التشكيك فيها من أى جهة ، فعائلته كلها عائلة رجال مُنجبون ، لا يقل عدد أبناء أى واحد فيهم عن الخمسة والستة ، وكلهم ذكور بالطبع ، فمن أين سيأتى العقم لأمثاله ، وإن كان ذلك الرجل القزم جاره قد أنجب ، أمعقول أن رجلا بطوله ويعرضه وفحولته الجلية يكون عاجزا عن الإنجاب ، فكيف تتجرئين على مجرد الإشارة أو التلميح ، وكيف يمكن للشك أن يتسرب إلى نفسك .. أه يا فاجرة ، يا عاهرة ، بل يا عاقر .. يا عاقر ...سأريك من أنا . ويريها من هو .

النهاية

انساب الماء الساخن من "الكوز" فى يد عائشة على رأسه الصلعاء وكتفيه ، وتداخل صوت تأوهه من حرارة الماء بصوت سقوط الماء على جسده وعلى قاع «الطشت» بصوت ارتطام الكوز بالإناء فوق موقد الكيروسين عندما استدارت عائشة لتغترف المزيد من الماء ، ثم فتحت الصنبور لتخفف من سخونته بقليل من الماء البارد . يخترق خيط الضوء المنبعث من الغرفة بخار الماء الكثيف فتظهر تضاريس ثدييها الضخمين وثنايا لحم الخاصرة بوضوح تحت قميصها الداخلى الرقيق الذى بلله الماء فالتصق بلحمها المتماسك رغم ضخامته . تنحنى لتمسد ظهره بلوفة تنبثق من مسامها رغاو كثيفة . تقول معاتبة مسترحمة « أنت ظالمنى معاك » . يغمض عينيه مستمتعًا بالماء الدافئ ينساب فوق صدره وبطنه ويداها تواصلان العناية بأخص أعضائه . ثم سألته إن كان يود أن يتناول لقمة قبل أن ينام فهو يبدو عليه التعب ولم يأكل شيئا يذكر طوال اليوم . يومئ برأسه . تستدير لترفع إناء الماء عن الموقد وتضع بدلاً منه

قدرًا فيه ذكر البط . وعندئذ راح صوت الناى يرتفع يليه صوت أكورديون فى لحن من مقام الصبا ، ثم انطلق صوت مؤذن الفجر .

ما حذفته الرقابة على المصنفات الفنية

أقسم بأغلظ الأيمان وأطولها وأعرضها ،بالأولياء الصالحين والأنبياء ، برأس جده فى التراب وشرف العائلة وعرضها وبفحولته وبذكره وبخصيتيه (مهددًا باجتثاثهما؟) وبرؤوس كل رجال العائلة الأحياء ، رفع يده فى الهواء متوعدًا ومهددًا ، وقبل أن تسقط فوق وجنتها رمت عائشة بجسدها تحت قدميه ، توسلت ، استرحمت ، تضرعت ، قبلت قدميه ، تعلقت بساقه وتشبثت بها وهو يحاول الانفلات من قبضتها فانزلق سرواله عن خصره وسقط الى قدميه . ركلها . زحفت على بطنها وهى تحتضن سرواله وهو يسير خلفها بساقيه العاريتين وما انفك يركلها . انقلبت على ظهرها متشنجة جثمت على ركبتيها وشقت صدر ثوبها وهى تصرخ مستنجدة به متوسلة ومسترحمة له ، وبان قدر ليس قليلاً من نهديها .. برك على ركبتيه واستقر خلفها وأمسك ساعدها فاستكانت له وهو يلوى ذراعها خلف ظهرها ، أحست بجسده الساخن يلتصق بجسدها ، واختلطت بأساريرها سمات تألم وانبساط لا يمكن فصل واحدة عن الأخرى ، وخيط الضوء الذى يفصل جسديهما يتلاشى تدريجيا .. ارتجفت خوفًا وانتشاءً . هل ستعود .. هل ستعود المياه إلى مجاريها ؟عنفها وهى أسفله: يا عاهرة ، أنت فاجرة ومومس كغيرك من النساء ، لو فتحت فمك بكلمة واحدة لقطعت لك لسانك، أتريدين أن تفضحينى أمام الجيران والناس يا .. يا .. ، سأريك يا بنت الكلب من أنا ، سأريك ان كنت رجلا أم لا .

الفهرس

	الصفحة
– كوب من الشاى	٧
– لو كنت مكانه	١٩
– تدريب على كتابة المأساة	٣١
– حيلة مسرحية	٣٩
– قص ولصق	٤٣
– عاش الجيل الصاعد	٥٣
– مسلسلة بالصبا	٥٩

صدر من الكتاب الأول

العنوان	النوع	المؤلف
١ - صحراء على حدة	قصص	عاطف سليمان
٢ - دراسة فى تعدى النص	نقد	وليد الخشاب
٣ - حدث سراً	قصص	أمينة زيدان
٤ - رسوم متحركة	شعر	صادق شرشر
٥ - ليس سواكما	شعر	عبد الوهاب داود
٦ - احتمالات غموض الورد	شعر	طارق هاشم
٧ - تدريبات على الجملة الاعتراضية	قصص	مصطفى ذكرى
٨ - كلوديوس	مسرحية	محمد السلامونى
٩ - مسرحيتان من زمن التشخيص	مسرحية	محسن مصيلحى
١٠ - ليكن	شعر	هدى حسين
١١ - أحلام الجنرال	مسرحية	محمد وزيق
١٢ - حفنة شعر أصفر	قصص	محمد حسان
١٣ - يستلقى على دفء الصدف	شعر	عطية حسن
١٤ - النيل والمصريون	دراسة	حمدى أبو كيلة
١٥ - الأسماء لاتليق بالأماكن	شعر	عزمى عبد الوهاب
١٦ - العفو والسماح	قصص	خالد منتصر
١٧ - ناقد فى كواليس المسرح	دراسة	مصطفى عبد الحميد
١٨ - أطياف شعرية	نقد	عبد الله السمطى
١٩ - أنا	نصوص	غادة عبد المنعم
٢٠ - سارق الضوء	قصص	ليالى أحمد
٢١ - رجع الأصداء	نقد	جليلة طريطر
٢٢ - شروخ الوقت	شعر	ماهر حسن
٢٣ - أغنية للخريف	قصص	عاطف فتحى
٢٤ - بائع الأقنعة	مسرحية	صلاح الوسيمى
٢٥ - بائع الأقنعة	قصص	شوقى عبد الحميد
٢٦ - كوجهك حين ارتحال الصباح	شعر	خالد حمدان
٢٧ - وشيش البحر	رواية	أمانى خليل
٢٨ - ناصية سليمان	قصص	مجدى حسنين
٢٩ - أغنية الولد الفوضوى	شعر	محمود المغربى
٣٠ - سؤال فى الوقت الضائع	قصص	مدحت يوسف

العنوان	النوع	المؤلف
٣١ - كـرحم غـابة	شعر	خـالد أبو بكر
٣٢ - الآخـر	مسرحية	ياسر عـلام
٣٣ - جـمر الأصـابع	شعر	أشرف يونس
٣٤ - سقوط ثمره وحيدة	قصص	حسن صبرى
٣٥ - أمسيات عـائلية	شعر	سعيد أبو طالب
٣٦ - مـلامح وأحـوال	نقد	ناصر عـراق
٣٧ - كـتابة الصـورة	نقد	محمد مختار
٣٨ - نتـاج الخـوف	مسرحية	ناصر العـزبى
٣٩- عناصر الإضحاك فى مسرح بديع خيرى	نقد	محمد زعيمة
٤٠- أولـى أول	حكايات	محمد ناصر
٤١- وهج الـكتـابة	نقد	حسان بورقية
٤٢- البنت مـصـرية	قصص	مصطفى الشافعى
٤٣- قبل إكتمال القرن	رواية	ذكرى نادر
٤٤- تجرى بسرعة فائقة	شعر	سحر سامى
٤٥ - تـفـكـيك الرواية	نقد	فتحى أبو رفيعة
٤٦ - نفس طويل	قصص	راندا طه
٤٧ - الميتامورفوسيس فى المسرح الحديث	نقد	مروة مهدى
٤٨ - فى الستة أيام زيادة	شعر	جمال فتحى
٤٩ - ماتحاولش	مسرحية	مصطفى سعد
٥٠ - الفن الفطرى فى مصر	نقد	ضحى أحمد
٥١ - كائن خرافى غايته الثرثرة	شعر	نجاة على
٥٢ - لون هارب من قوس قزح	رواية	منى الشيمى
٥٣ - الشرك	قصص	ليلى الرملى
٥٤ - الرغبات	قصص	فارس سعد
٥٥ - لن تدرك سرك	رواية	أحمد عادل القضابى
٥٦ - حاجات تانية	شعر	محمد عبد الحميد دغيدى
٥٧ - خازنة الماء	شعر	فتحى عبد السميع
٥٨ - قص ولصق	قصص	مجدى عبد الهادى
٥٩ - عيون سمارة	أوبريت	فرغلى مهران
٦٠ - السير نحو نقطة مفترضة	شعر	محمد أحمد العشيرى
٦١ - وخز كمان	قصص	أحمد كمال زكى
٦٢ - أثر الأعمال الأدبية	نقد	فاطمة فوزى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٥٣٧٢ / ٢٠٠٢




0493982


المجلس
الأعلى
للثقافة